تاريخ
البيمارستانات في الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد عيسى بك

العضو بالمجمع العلمي المصري والعضو بالاكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس
والعضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق والعضو بالمجلس الاعلى لدار الكتب
الملكية والعضو باللجنة العليا لمتحف فؤاد الصحي

دار الرائد العربي
بيروت - لبنان
ص.ب: ٦٥٨٥

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

تاريخ
البيمارستانات في الإسلام

مقدمة الطبعة الاولى

هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء مغتبطين بيان رائع لعظمة التمدن الإسلامي وما حفل به من أمجاد بذل في سبيله من جهاد ، حتى أظلت راياته البلاد وسعد بخيره العباد . وشهد الله ما ذكر ذاكر حضارة المسلمين إلا استهلت بعبراتنا الشؤون ، حسرة على من كانوا رسل خير ورحمة ، وحملة علم وعرفان ، أن تذهب جهودهم الإنسانية سدى ومساعيهم الخيرية أدراج الرياح ، على يد من خلفوهم في الحضارة فرجعوا بالفضيلة قروناً إلى الوراء وأستغفر الله فما من وراء فيه ما في تمدن القرن العشرين من قسوة ووحشية وانتهاك لكل حرمة .

ولقد توفر على خدمة تاريخنا مئات المؤرخين من شرقيين وغربيين في مختلف العصور وكشفوا كثيراً من مجاهله ، وجلوا من مغامضه ، حتى وضحت سبله ، ولاحت معالمه ، وأجمع الناس يحدوهم يقين لايتزعزع على أن حضارة الإسلام بزت كل حضارة في الوجود شرفاً ونبلا وسمواً وسماحة . ومع ذلك فإن هناك صفحات كثيرة من الجهاد الإنساني النبيل لاتزال تنتظر من يكشف عنها التراب المتراكم ويلم ما تشعث منها ، ليخرجها للناس

آية معجزة في حب الخير والكفاح له والتفاني فيه · وذلك مانجد منه بياناً في هذا الكتاب، وذلك ماحدا جمعية التمدن الإسلامي على نشره لأنه صفحة قيمة من صفحات التمدن الإسلامي العظيم ·

····

وبعد فما يعتده أنصار الحضارة العتيدة في باب حسناتها سبقها إلى تعميم المشافي والملاجئ الخيرية في بلادها وعطفها على ذوي العاهات والمعتلين، وكفاحها في سبيل الصحة العامة · وكان جمهورنا على التسليم بهذا السبق والتفرد على رغم مانرى من اختصاص فريق من البشر بهذه المنافع دون فريق، إذ لم يقم من ينصب الميزان بالقسط ويبحث في مطاوي تاريخنا الزاهر عما لسلفنا من مجهود إنساني، حتى انتدب لذلك العلامة الجليل الدكتور أحمد عيسى بك بما يتحلى به من تضلع في علوم الطب وتمكن في تاريخ العرب إلى رجولة سامية تأبى عليه أن يهب لراحته وقتاً يستطيع خدمة أمته فيه، فهجر الراحة وعكف على العمل العلمي الخالص حتى أخرج لنا كتابه هذا برهاناً ساطعاً على أن الحضارة الإنسانية المحضة هي حضارة المسلمين · وبذلك تتضافر الأدلة من أنواع مختلفة على أن المسلمين ما كانوا يعيشون لأنفسهم، بل كانوا يعدون خير الناس وسعادتهم من أعظم الأمانات التي حملوها وعليهم ألا يألوا جهداً في تأديتها على حقها · فكان الخير العام هو السمة التي تسم تاريخهم بين تواريخ الأمم قاطبة في القديم والحديث ·

جعل المؤلف أول المستشفيات في الإسلام خيمة رفيدة وهي امرأة (كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقوم حين أصاب

سعد بن معاذ السهم في غزوة الخندق : « اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب . »(١) ولما تتابعت الفتوح كان في جيش مضارب فيها الممرضات من النساء يداوين الجرحى وكان هذا جهادهن .

وبذلك علمنا أن أول المستشفيات نشأة في الإسلام هي المستشفيات الحربية المتنقلة إلى أن جاء الوليد بن عبد الملك الخليفة العمراني فاتخذ للمجذّمين وغيرهم من ذوي العاهات داراً خاصة يعتني بهم فيها وأجرى عليها الأرزاق ورتب لهم الخدم، فكان أول من اتخذ الملاجئ الخيرية في الإسلام . ثم تتابع الأمر حتى غصت حواضر الإسلام من سمرقند إلى فاس إلى غرناطة بالمنشآت الخيرية ، وحبست عليها الأوقاف الدارة ورتب فيها الأطباء والصيادلة والممرضات والفراشون وجهزت بوسائل الرفاهية والتسلية ، وتمتع المرضى فيها من الرعاية والنعمة بما لاغاية وراءه .

ويحير المؤرخ تعليل هذه الكثرة من المؤسسات العامة حتى صرت تجد في بقعة صغيرة حول المسجد الأموي ثلاثة بيارستانات يمر الماشي عليهن جميعاً في دقيقتين . ونحن ـ مع تقديرنا للرقي العظيم الذي بلغه المسلمون ـ نجد ذلك نتيجة منطقية للخطة التي وضعها خلفاء الإسلام نصب أعينهم وهي إفاضة النعمة على الرعية عامة حتى يتمتع الملوك والسوقة بدرجات متقاربة من رغد العيش ورفاهية الحياة . ولن ننسى ما فعل عمر إزاء تقسيم السواد سواد العراق على المقاتلين ، وتلك النظرة الحصيفة التي ذهبت به إلى المستقبل البعيد ، وقوله (لئن سلمني الله لا أدع أرامل العراق يحتجن إلى رجل بعدي) ثم ترسم الخلفاء خطاه من بعده حتى رأينا الغني في أيام عمر بن عبد العزيز يدور بصدقته فلا يجد من يقبلها

---

(١) ص ٩ من هذا الكتاب

منه . هذا الرخاء المستفيض أسلم الامراء والأغنياء بعد عصور ، إلى إنفاق أموالهم على المؤسسات الخيرية من ملاجئ ومشافي ومساجد ومدارس وربط وتكايا وزوايا ... وحفر آبار وإجراء قنوات وبناء مصانع على طرق المسافرين، بل أدام التفنن في تحري الخير إلى حبس الأوقاف على ما يفقد من متاع ويعطب من إناء . وفي دمشق أحياء كثيرة لاتمشي فيها عشرين متراً إلا رأيت مسجداً أو مدرسة أو مستشفى بل يكاد ما انحدر فيها من قاسيون يكون كله مدارس ومساجد وتكايا ومشافي . ومن قرأ ماوقف على هذه من أوقاف قطع بأن أكثر القرى والمزارع والعقارات في الشام وقف على الجهات الخيرية فلا غرابة إن عددنا في أول الأسباب لشيوع هذه المنشآت ندرة الفقراء .

أثرت هذه المشافي أثراً آخر علمياً خالصاً إلى جانب أثرها الخيري ذلك هو تقدم علم الطب شوطاً بعيداً ، بما أسدى إليه نوابغ الأطباء الذين نشأوا فيه من أيادٍ ، وما نال من تشجيع العلية والأمراء . وحسبك دليلاً أن تلقي نظرة على الباب الأول من هذا الكتاب وخاصة منه نظم البيمارستان والدروس الطبية وامتحانات الأطباء والصيادلة وترتيبهم وشروط إجازتهم فستعلم أن نظم هذه الصنعة لاتقل عما هي عليه الآن في الحيطة والاهتمام ، وستجد أن ماجروا عليه في امتحان الخريجين في مختلف فروع الطب هو غاية في الحذر وضمان السلامة وسيتساءل القارئ حين يفرغ من هذه التفاصيل والعجب آخذ منه كل مأخذ : أترى أن ماوصلنا إلى ما انتهوا إليه من الدقة والاهتمام بالخير العام ؟

والمشافي كانت في الوقت نفسه جامعات طبية تلقى فيها الدروس النظرية إلى جانب الدروس العملية وكان لها من الشرف والمكانة بحيث كان

السلطان أو نائبه هو الرئيس الأعلى لها فنرى أن البيمارستان النوري مثلا مناط إدارته بنائب السلطنة بدمشق . ولا غرابة بعد ذلك في ان يولي الناس علوم الطب كل عنايتهم وقد رأوا ماللأطباء من الأرزاق الوافرة والمناصب العالية والشأن الاجتماعي العظيم ، حتى كان من المكفوفين أطباء مشهورون ، بل إن تلك الحضارة الباهرة آتت من الثمر في هذا الباب ما عجزت عنه حضارة القرن العشرين : فقد تخطى الاهتمام بالطب الرجال إلى النساء ، فكان منهن طبيبات بارعات بل كان منهن من تولت مشيخة الطب في حاضرة من أعظم حواضر الإسلام (١) .

وسيشكر القارئ للمؤلف جهده الكبير إذ لم يكفه أن يجلو لنا حالة البيمارستانات في أوضح صورة وأنصع بيان ، حتى لكأننا نعيش في عهود ازدهارها ونعاين مرضاها وآلتها وحسن نعمتها وعناية أطبائها ونستمع إلى دروسهم ونرنو إلى تجاربهم ونبهر بآيات نبوغهم وافتنانهم ، لم يكفه ذلك حتى رفعنا إلى مستوى ثقافتهم الشاملة فأرخهم كما أرخ مشافيهم وعرفنا أن الطبيب إلى تمكنه في فنه كان مشاركاً في بقية الفنون . وإنك لتجد في كثير من تراجم الذين تولوا العمل في المشافي من درس الفقه والتفسير وعلوم اللسان ، دع عنك إجادة السريانية أو اليونانية أو العبرانية . وأكثرهم اشترك في إغناء الخزانة العربية بنفائس المؤلفات والترجمات . وكان مما يمتحن فيه الطبيب أطروحة يقدمها في فرع من فروع الطب التي مارسها وبهذا ترى الأطباء لهم المحل المرموق بين حملة الثقافة ونشرة العلم . وإذاً لا تستغرب أن تكون البيمارستانات من العناية والترفيه على مايحدثك به المؤلف ، والمشرفون عليها من ذكرنا لك علما وفضلا وتمكنا وحصافة .

---

(١) انظر ص ١٦٤ رقم ١٦

وهل أتاك أنهم سبقوا حضارتنا بقرون حين اهتدوا إلى المعالجة بالموسيقى ، لقد كانت الأجواق الموسيقية في بيمارستان فاس تروح عن المرضى وتسليهم عن آلامهم . وكذلك الأمر في البيمارستان النوري بدمشق فقد كانوا يجلبون القصاص والمطربين إلى قاعات المرضى فيه بل رتب المؤذنون ينشدون على المآذن قبل الفجر بساعتين، بأنغام شجية تخفيفاً لعناء السهر على المرضى المؤرقين . ولا تزال هذه البدعة الحسنة جارية إلى الآن في منتصف الليل دائماً وبعد العشاء في بعض الأحايين ، دون أن يعرف الناس لها أصلاً وسبباً . والحق أن الانسان لن يملك دمعته على قوم بلغت من نفوسهم الرحمة وحب الخير هذا المبلغ النبيل .

وانظر على سبيل المثال ما أعد من وسائل الراحة في البيمارستان العضدي مع العلم بأنه لم يكن من بيمارستانات الدرجة الأولى ، فإن ناظره في سنة ٤٤٩ بعد أن دثرت أوقافه أعادها « وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئاً كثيراً ، وأقام الفرش واللحف للمرضى ، والأراييح الطيبة والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين . وكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباخات وبوابون وحراس ، والحمام البستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار البقول ، والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء ، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ويبيتون عندهم بالنوبة . وكان فيه عدة خواب فيها السكر الطبرزد والأبلوج واللوز والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب والبراني الصينية فيها العقاقير وأربع قواصر فيها الأهليج الأصفر والكابلي والهندي وأربع قواصر تمر هندي وزنجبيل وعود وند ومسك وعنبر والراوند الصيني في البراني والترياق الفاروقي وجميع الأفاويه وصناديق فيها أكفان وقدور كبار

وصغار وآلات وأربعة وعشرين فراشا ... وذكر ابن صابي أشياء مايوجد في دور الخلفاء مثلها (١)».

هذا في العضدي فما ظنك بالبيمارستان النوري بدمشق الذي لم تخمد منه النار قط، أو المنصوري بالقاهرة وهو لايزال يؤدي عمله الإنساني إلى يوم الناس هذا ساخمًا من عمره ثمانية قرون وبذلك يكون أقدم مستشفى في العالم قاطبة.

وحدث ما شئت - ولا حرج - عن بيمارستان تونس العظيم الذي كان فيه أربعة آلاف بين مريض وناقه وهو عدد ضخم ليس على وجه الأرض اليوم مستشفى يستوعب من المرضى ما استوعب.

....

رأت جمعية التمدن الإسلامي بدمشق في نشر هذا الكتاب حافزاً لأحفاد أولئك الأبطال ليصلوا ما انقطع من تاريخ الإنسانية إذ لايزال مكان أسلافهم شاغراً ينتظر من يقوم بتلك الرسالة النبيلة، ورأت خدمةً لناحية من التاريخ الإسلامي تكاد تكون مجهولة. وليس من شك في أن للمسلمين نواحي كثيرة تحتاج إلى من يوليها العناية الوافية من أرباب الكفاءات لتتم فصول التاريخ الخالد لأشرف من تقدم إلى خدمة الخير والحق والهدى والسلام.

وأمر آخر له قيمته الأدبية وهو أن الدكتور الفاضل أحمد عيسى بك أول من أرسل مؤلفًا من مصر ليطبع في دمشق بادئًا بذلك عهد تعاون أدبي بين هاتين الحاضرتين وهما أعظم حواضر الثقافة في العالم العربي وفي هذا دليل عملي على أن البلدان العربية أشبه بأحياء بلد واحد. ونرجو لهذا الاتصال العملي أن تطرد حلقاته بعد إذ خرجنا من طور الدعاية

---

(١) ص ١٩٠ من هذا الكتاب

إلى طور العمل في سبيل الوحدة العربية . فلا يسعنا إلا شكر هذه الأريحية للدكتور الفاضل إذ قدم كتابه لجمعيتنا تنظر فيه وتطبعه الطبعة الأولى لتنفق ريعها على المشاريع الخيرية أكثر الله في حملة العلم من أمثاله العاملين .

ونعتقد ـ إذ نقدم للناس هذا السفر النفيس ـ أنا حققنا مبدأ من مبادئنا السامية وهو نشر آثار التمدن الإسلامي ، وأعظم هذه الآثار ما اتصل خيره بالناس قاطبة وشملت رحمته كل نفس تختلج . ولعل من يقرأ هذا الكتاب بنزعة إنسانية خالصة يذكر كلمة رينان :
« مادخلت مسجداً قط، إلا عراني خشوع يمازجه أسف على أني لم أكن مسلماً» فيتمنى أن يكون مسلماً من ذلك الطراز طراز نور الدين وصلاح الدين .

وإنا لعلى يقين من أن من طالع تاريخ تلك النفوس السامية لن يقف أمره عند الأسف والخشوع ، ولو أن العبادة تجبى لمخلوق لكانت من حق هذه القلوب الكبيرة التي وسعت رحمتها الناطق والأعجم . فقد تفنن أصحابها في ابتكار أساليب الرحمة تفنن الغربيين في ابتكار أساليب العذاب . وسيترحم عليهم كل من وقف على آثار رحمتهم وهاهو ذا طرف منها بين دفتي هذا الكتاب .

دمشق : ذو القعدة ١٣٥٧ هـ

سعيد الافغاني
عضو جمعية التمدن الاسلامي

تنبيه – في الكتاب كثير من النقول وحجج الوقف يرجع عهدها إلى عصور انحطاط اللغة ، ولذلك تغلب عليها الرطانة التركية والابتذال العامي أو يفشو فيها لحن فاحش ... ولم نر إصلاح شيء من لغتها إبقاءً على مسحتها التاريخية فاقتضى التنويه .